- **يقول أبو البقاء الرندي:**

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصانُ***** فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأيامُ كما شاهدتها دُولٌ*****مَن سَرَّهُ زَمنٌ ساءَتهُ أزمانُ
وهذه الدار لا تُبقي على أحد*****ولا يدوم على حالٍ لها شان
يُمزق الدهر حتمًا كل سابغةٍ*****إذا نبت مشْرفيّاتٌ وخُرصانُ
وينتضي كلّ سيف للفناء ولوْ*****كان ابنَ ذي يزَن والغمدَ غُمدان
أين الملوك ذَوو التيجان من يمنٍ*****وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ ؟
وأين ما شاده شدَّادُ في إرمٍ***** وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ ؟
وأين ما حازه قارون من ذهب*****وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ ؟
أتى على الكُل أمر لا مَرد له***** حتى قَضَوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلك ومن مَلِك*****كما حكى عن خيال الطّيفِ وسْنانُ
دارَ الزّمانُ على (دارا) وقاتِلِه*****وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ
كأنما الصَّعب لم يسْهُل له سببُ*****يومًا ولا مَلكَ الدُنيا سُليمانُ
فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة***** وللزمان مسرّاتٌ وأحزانُ
وللحوادث سُلوان يسهلها*****وما لما حلّ بالإسلام سُلوانُ
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له*****هوى له أُحدٌ وانهدْ ثهلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فامتحنتْ*****حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ
فاسأل (بلنسيةً) ما شأنُ (مُرسيةً)*****وأينَ (شاطبةٌ) أمْ أينَ (جَيَّانُ(
وأين (قُرطبة)، دارُ العلوم فكم*****من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين (حْمص)، وما تحويه من نزهٍ*****ونهرهُا العَذبُ فياضٌ وملآنُ
قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما*****عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ
تبكي الحنيفيةَ البيضاءُ من ! ;أسفٍ*****كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ
على ديار من الإسلام خالية*****قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ
حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما*****فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ*****حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ
يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ*****إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ
وماشيًا مرحًا يلهيه موطنهُ*****أبعد حمصٍ تَغرُّ المرءَ أوطانُ ؟
تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدمها*****وما لها مع طولَ الدهرِ نسيانُ
يا راكبين عتاق الخيلِ ضامرةً*****كأنها في مجال السبقِ عقبانُ
وحاملين سيُوفَ الهندِ مرهفةٌ*****كأنها في ظلام النقع نيرانُ
وراتعين وراء البحر في دعةٍ*****لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ

أعندكم نبأ من أهل أندلسٍ*****فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ ؟
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم*****قتلى وأسرى فما يهتز إنسان ؟
ماذا التقاُطع في الإسلام بينكمُ*****وأنتمْ يا عبادَ الله إخوانُ ؟
ألا نفوسٌ أبياتٌ لها هممٌ*****أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ
(المقّري، نفح الطيب، ص 232).

- إضاءة لقصيدة أبي البقاء الرندي:

من خلال القراءة الأولية للقصيدة يتضح لنا أنها تشتغل وفق تقسيم يمكن رصده كالآتي:

حاول الشاعر خلال هذه القصيدة (في رثاء الأندلس) الوقوف عند مجموعة من العبر المتعلقة بزوال الدول وموت الملوك والعظماء، فدروس التاريخ مليئة بالأحداث التي تكشف أن الأحوال لا تدوم على حال، فكم من دولة اختفت وكم من ملوك كانوا يُمَنُّون النفس بالخلود فذهبت أيامهم.

كما انتقل الشاعر إلى رصد حقائق تاريخية وعبراً كبرى تتصل بمنطق التاريخ وسننه، فكل شيء آخذ في التناقص والزوال إذا اكتمل نموه (ابن خلدون)، وهذه سنة الله في خلقه، لذلك على الإنسان ألاّ يغتر بطيب عيشه فإن مصيره إلى الزوال، وهذه الأمور كما تشاهدها متعاقبة متغيرة متبدلة فمن سره زمن ساءته أزمان، وهذه الدنيا لاتدوم على حال واحدة فهي في إقبال وإدبار، وكما قيل يوم لك ويوم عليك، فكل ما كان فيه ملوك الأندلس من ملك أصبح في خبر كان، فصاروا بذلك عِبَرا أي مجرد مواعظ للناس. فيختم فجائع الظهر أنواع منوعة وهي ألوان.

كما حاول الشاعر تصوير فاجعة سقوط المدن الأندلسية في يد العدو، معتبرا ذلك السقوط مصيبة الدهر التي لا عزاء فيها، وذلك لكبرها وهولها على الأسماع والقلوب، فلو أنها رميت على جبل أُحُد لخرّ من عظمها وتكسر، وتضعضع جبل ثهلان، ذلك الجبل الواقع في نجد، ثم أخذ يبكي المعالم الإسلامية التي طمست. ولك أن تسأل بلنسية ما حال مرسية، وأين هي شاطبة، وقرطبة، التي كم فيها من

عالم قد سمت وارتفعت حاله، نعم تلك العواصم التي كانت منارة للعلم ومعاقل للإسلام، سقطت في أيدي النصارى فما ينفع البقاء إذا لم تبق أركان.

ثم انتقل إلى تصوير حال الإسلام بعد سقوط المعاقل الإسلامية، حيث أصبح حزينا فها هي الحنيفية (مذهب إسلامي) تبكي من شدة حزنها كما يبكي المحب لفراق حبيبه، نعم تبكي على هذه المعاقل التي خلت من الإسلام وأقفرت، فصارت الأندلس كلها نصرانية، عامرة بالكفر وجعلت النواقيس في الصوامع بعد الآذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن... فيا لها من فجيعة ما أمَرَّها، ومصيبة ما أعظمها، وطامة ما أكبرها، فحتى الجمادات تأثرت لما حدث، فأخذت المحاريب والمآذن تبكي وترثي نفسها وهي غير عاقل. فكيف لا تبكي أنت يا غافل، إن كنت في سِنَة نائما غافلا عن الذي أسقط إخوانك من المسلمين، فإن الدّهر يقظان سيدور عليك يوما ما، فلا يلهك ويشغلك موطنك لما فيه من الملذات والأنهار الجارية العذبة، فكيف تُغَر بعد سقوط حمص، أيخدع الناس في أوطانهم، تلك المصيبة أنست ما تقدمها وليس لها مع طول الدهر نسيان.

كما خصص الشاعر جزءا من قصيدته لاستنهاض همم المسلمين في شتى الأقطار لمد يد المعونة إلى إخوانهم بالأندلس للحفاظ على ما تبقى منها. والدعوة إلى الجهاد للدفاع عن الإسلام والحرمات .

ثم أخذ الشاعر يتحدث ويذكر ما حل بالمسلمين، حيث تحولت عزتهم وقوتهم لما شاعت بينهم المنكرات بلا نكير، إلى ذل وهوان وانكسار، ساقهم إليه النصارى حتى بيع سادة المسلمين آنذاك في أسواق الرقيق وهم يبكون، وحالوا بين الأم وطفلها وفرقوا بينهما عند البيع، كما تفرق أرواح وأبدان فلو رأيت هذا المنظر وتلك المذلة لراعك الأمر ولأحزنك، فأي كربة وأي شدة مرت على المسلمين، فلمثل هذا يذوب القلب من الكمد والحزن، إن كان في القلب إسلام وإيمان.